

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمت الاشارة اكثر من مرة الى كتاب الروضتين وذيله لأبي شامة، شهاب الدين عبد الرحمن ابن اسماعيل المقدمسي [٥٩٩ - ٦٦٥ هـ / ١٢٠٢ - ١٢٦٧ م] على انه أوفى مصدر عربي يتحدث بأسهاب عن أحداث الحروب الصليبية ، فهو قد نهل مادة جزئية الأساسيين من مصادر الذين تقدموه، واحسن النهل والاختيار واستوفى الروايات ، وأبدى رأيه في ترجيح بعضها على بعض أحيانا ، أما في الذيل فهو المصدر ، وهو شاهد عيان معاصر لكل ما سجله، وهنا تجلت أصالته وتفوقه على غيره من المؤرخين، وبذلك بات مصدر الجميع الذين جاءوا من بعده.. .

لقد أكثر أبو شامة من الاشارة الى نفسه واسرته واحواله في الذيل كما ترجم لنفسه، لهذا لن أعرف بهذه التوطئة به وبحياته.

لاشك أن أبا شامة مؤرخ عملاق، كان صاحب أحاسيس مرهفة، ولكم يتمنى المرء لو دفعه فضوله التاريخي وحبه للمعرفة نحو التوغل الى صفوف الفرنجة لوصف أصولهم ودوافعهم ونظمهم وما جبلوا عليه من عادات وتقاليد.

لعله لم يفعل ذلك لأنه كان يؤرخ لدولتين مسلمتين وليس لأعدائهما لكن أو ليس من شروط التغلب على العدو معرفته بالعمق من جميع الجوانب ؟ ومع صحة هذه المسئلة يبدو أن المسلمين جميعا حتى رجال السلطة منهم اهتموا برصد حركات العدو الصليبي عسكريا وسياسيا ،

ولم يأبهوا بما رسا وراء ذلك، كان همهم تحرير الأرض من هذا العدو وردعه ، وكف عاديته والخلاص منه ،فقد ظل الفرنجة طوال قرنين في نظر المسلمين كفارا وأعداء، ومعرفة هذا كافية، ولئن اهتم الفرنج بتاريخ المسلمين وأحوالهم ، فانهم فعلوا ذلك لكونهم غزاة أرادوا العيش على الأرض التي انتزعوها ، وسعوا الى تدبر وسائل الحياة في أوساط عدوانية من كل جانب ، كما استهدفوا حياة المزيد من الأرض ، فعدوانية وليم الصوري جعلته أول المستعربين إن لم نقل المستشرقين ، لكن العرب لم يكونوا عدوانيين ،يضاف الى هذا ان المؤرخ العربي ظل على قاعدة الأوائل يؤرخ للملوك والدول ، ويكتب لا لنشر المعرفة بين الناس ، بل تلبية لطلب أحد رجال السلطة، وظل رجال السلطة جندا أحاسيسهم الحضارية فقيرة ، وفهمهم للثقافة العربية سطحي جدا، فزين الدين صاحب إربل وسواها عندما جاءه حيص بيص ليمدحه ، قال له لن أفهم عليك شيئا مما ستقوله ، لكن أعرف أنك تحتاج عوني ، فأمر له بمبلغ من المال، وصلاح الدين أمر ببيع خزانة الكتب العظيمة التي وجدها في قصور الفاطميين بالقاهرة ، لكنه احتفظ بالمجوهرات والذخائر لنفسه ولآله.

الانتصارات في حطين وسواها جعلت من بعض رجال الجند والمرتفة والعبيد أبطالا ، لكن لا بد من التمييز بين البطل العسكري وبطل اشادة الحضارة العربية، والحفاظ عليها، ولا بد من التذكير أن رجال الفكر سايروا مشاعر الحكام وماشوا رغباتهم ، ودونوا ماكان يرضيهم ويفقهوه، فهم هنا كانوا على دين ملوكهم .

بفضل التفوق الحضاري العربي جاء النصر في حطين ، وحين بدد خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين ثار حطين السياسية والعسكرية ، ظل التفوق الحضاري يهيء الفرصة لمتابعة التحرير وطرد الغزاة وهذا ما كان ، وعليه يتوجب على الباحث في تاريخ الحروب الصليبية وتاريخ الاسلام

بشكل عام ألا تصممه قعقعة الحديد ، عن سماع أصوات بناء الحضارة ،
وألا يعمي غبار المعارك ناظرية عن رؤية عمق المؤثرات الحضارية وألا
تدفعه عاطفة النصر العسكري الى عدم التوازن في تقرير حقائق الأمور

هذه والحق اشكالية كبرى تحتاج الى البحث المعمق ، ولعله يكفي
هنا اثارها فالسؤال يشكل نصف المعرفة، والشك هو الطريق نحو
اليقين والايان.

أنا على دراية أن رجال السلطة الأيوبية بنوا المدارس ، لكن جل هذه
المدارس جاءت بمثابة ترب لهم، وكانت دينية ضيقة المجالات ، تعتمد
على دراسة نصوص مكررة لهذا جاء نتاج رجالها إما اختصارات أو
شروح، وكادت جوانب الابداع أن تختفي ، ذلك أن الحضارة العربية
جاءت وليدة حلقات العلماء، ومقارعة الحجة بالحجة في أجواء من
الحرية والالتزام الخلقى، لكن المدرسة لم توفر هذه الشروط ، بل جعلت
من العمل العلمي عملا دينيا ضيقا متوارثا ، وتوافق هذا مع تنامي
عقلية التصوف الطقوسية ، فالتصوف الان لم يعد اعمال زهد وتفكر ، بل
حلقات ذكر وسماع وطعام ، وعيش رغيد داخل الزاوية بدون عمل منتج.

انها المرة الأولى التي يطبع بها كتاب الروضتين مع ذيله بشكل علمي
محقق ، وقد اعتمدت في عملي على مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس ،
وهي فيما اعلمه أفضل مخطوطات هذا الكتاب ، وكان أبو شامة قد قسم
الروضتين الى جزئين ، لكن لكبر حجم كل جزء أعدت النظر بالتقسيم
فجعلته ثلاثة أجزاء ، يغطي الأول منها أخبار الأحداث حتى وفاة أسد
الدين شيركوه وتسلم صلاح الدين لوزارة القاهرة ، ويروي الثاني أخبار
نشاطات صلاح الدين حتى تمكنه من الانفراد بالسلطة في الشام ومصر

- ٧٥٠٣ -

وبعض أجزاء الجزيرة ، ويتحدث الثالث عن بقية الأحداث حتى بعيد وفاته.

ان بعض مصادر الروضتين قد توفر لنا ، وما توفر أقدمت على نشره داخل موسوعتنا ، لكن هناك مصادر كثيرة هامة عاد إليها أبو شامة تعد بحكم المفقود لا سيما ما كتبه ابن أبي طي الحلبي مع العديد من الوثائق الهامة.

من الله ارجو التوفيق والعون وله خالص الحمد والشكر والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم.

دمشق / ٢٥ / ٢ / ١٤١٦ هـ - ٢٣ / ٧ / ١٩٩٥ م

سهيل زكار